فكرة

عن الحوزة العلمية في النجف



السيد محمد رضا الغريفي

فكرة عن الحوزة العلمية في النجف

فكرة عن الحوزة العلمية في النجف

تأليف

السيد محمد رضا الغريفي

موسوی غریفی، محمد رضا، م ۱۳۷٤هـ.ق.
فكرة عن الحوزة العلمية في النجف / تأليف محمد رضا الغريفي.
۷۰ ص.
ISBN: ۹۷۸-۹٦٤-۹۸٤-۰۷۲-۷
۱ـ حوزه علميه نجف. ۲ـ حوزه های علميه ـ عراق ـ نجف. الف. عنوان.
BP ۷/٤۸/ف۹م۷ ۲۹۷/۰۷۱٥٦۷٥

هوية الكتاب

اسم الكتاب .... فكرة عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف
المؤلّف .... السيد محمد رضا الغريفي
الناشر .... مؤسّسة السيدة المعصومة عليها السلام
المطبعة .... ثامن الحجج عليه السلام
الطبعة .... الأولى ۱٤۲۹هـ
عدد النسخ ۱۵۰۰
شابك: ۷-۰۷۲-۹۸٤-۹٦٤-۹۷۸

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

عَرَضَ عليَّ أحد الأخوة الأعزاء ما يدرّس في مشروع مؤسسة مطروح للإنشاء كرافد للحوزة الشريفة، وطلب منّي أن أبدي ما عندي حول ما وضع وأسس، فكانت هذه الأوراق.

السيد محمد رضا الغريفي

النجف الأشرف

٢٧/ ربيع الأول/ ١٤٢٧هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ
مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ
فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ
إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَحْذَرُونَ

التوبة: ١٢٢

في البداية أقول

ليست الحوزة الشريفة ملكاً لأحد ولا حكراً على أحد، وليست العمامة زياً يُلْبَسُ في إطار درسٍ يُحَصّل، إنّ الكُلّ في الانتماء إليها سواء، بشرط أن يخضع هذا الكل إلى ضوابطها، بكل التزاماته التي تحدد - فيما تحدد - كيفية التصرف في حدود الكلام ومحدّد المنطق، وفق أسلوب خاص يطبع الشخصيّة بخصوصيات متميزة أينما وُجِدَت، في الشارع والبيت والأسرة أو بين الأهل والأصدقاء، دونما عُقَدٍ ولا تَعْقيد، فمن استطاع أنْ يحقق في شخصه التزامات طالب العلم المعمم فالطريق أمامه مفتوح ليكون واحداً من المسيّرين في مجتمعه، وإلاّ فعليه أن يوجد لنفسه خطّاً آخر في الحياة دون أن يتلمّس مبادئ آل محمد في مسلك يَتَزيّا بما يشار إليه بأنه من حملة علومهم.

تمهيد

إنّــنا نحــتاج إلــى أعمــال جديدة تحدد بوضوح ضوابط الحوزة ومـناهجها وأهدافها، ثم بلورة روافد خاصة (كمؤسسات) توسّع من مـدى حـركتها العلمـية والاجتماعـية، ويحتاج أيُّ طرح لأيٍّ برنامج يُنشئ رافداً لحوزتنا المباركة إلى توضيح مسيرته كتابةً، بأسلوب فَنّي صـحيح مـن مُتَخَصّص يمتلك قدرة علمية ولغوية وفكرية، من أجل أن يعـرض الأهداف والبرامج، بما تتوافر لديه من مَلَكَة في استعمال اللفظ وتطويعه ليعبّر بدقّة عمّا يراد من إنشاء ذلك الرافد الحوزوي.

والـذي أعنيه من الكلام هو أن يفهم المطَّلع على أي منهج لمؤسسة حوزوية جديدة أنّ تلك المؤسسة طريق واقعي لرفد الدراسة الحوزوية.

ولأجل أن نكون ثابتين لابدّ أن يقام كل رافد للحوزة دون معاناة التساؤل، أو تشكيكات الاستفهام عن المنطلقات التي تبغيها.

وفـي هـذا السـبيل لا بـد أن يكـون طرح أي مجهود لأي رافد حـوزوي بمـا أن يـبث روحاً جديدة بأسلوب شرعي واقعي دون أن يُقصّـر - فـيما يطـرح - عـن برامج الحوزة الأساسية، أو يكون عالياً عليها فيفقد ما يطرح توازن الانسجام مع المسيرة العامة.

ولا يجوز أن تنتمي أية دراسة جديدة في واقعنا الحوزوي إلى وصفها بأنها تجديد في مسيرتها، وإلا كان المستجد ترقيعاً فيها يفقدها الرونق وبهجة الفكر كما لا يمكن أن نصفها بكونها إصلاحاً فيها، وإلاّ انطوى على التلميح إلى خطأ ما تقدم من مسيرتها. ومؤكد أنّ دراستنا الحوزوية غير محتاجة إلى الترقيع، كما أنّها في غنىً عن اتهامها بخطأ المسيرة.

وحيث نحتاج اليوم إلى إضافة نوعية لحوزتنا الشريفة فلأجل أن نحيط بكل زماننا، ونستوعب كل مكاننا، بما في الزمان والمكان من شخوص وتقلبات أفكار.

إننا لا ينبغي أن نبدأ في الإنشاء لنصل إلى منتصف الطريق ونقف دون ممارسة التواصل أو الإشراف، أو أن نضع المسيرة التي أنشأناها بِيَدِ مَنْ يَفْتَقِر إلى الكيفية الشخصية التي تريدها الإمامة. والخطأ الذي ارتكبناه ونرتكبه الآن يتجسد في أصل اختيار المشرف في كثير من المشرفين، وإن كان ثمة اختيار مطمأن للمشرف فإن الخطأ الآخر هو عدم متابعته فيما أنجز من الأعمال وملاحقته لمعرفة ما جانب الصواب فيه هو أو مَن يعمل معه ضمن تقييم عام للعمل على ضوء المنجز صحيحاً أو ما أخطأ تقدير قراره أو تطبيقه. ولأجل هذا لا بد من الإحاطة بتمام المنجز على نهج تشخيص السبب في عدم المجانسة ما بين الغاية والواقع، وكذلك معرفة خطوات العاملين

وتقيـيمهم على ضوء ما أنجزوه، ليكون الانتقال إلى دراسة الشخصية المنتمـية إلـى هـذه المؤسسـة الحـوزوية أو تلـك في هدف اختيار العمامة كطريقة حياة ومدى ما تثبت عليه من فكر أو ما تتقدم فيه من دراسـة أو فهـم؛ لنقف على مقدار صلاحية وأحقية أن يكون المعمم معمماً يليق بشرف العمامة دون أن تكون نشازاً في شخصه.

إنّـنا يجـب أن نبحث عن النجاح مِن خلال تشخيص ما أخطأنا فـيه لتلافيه، لا أن نبرره وما أخطأناه لنثبت أننا ناجحون؛ لأنّ المسيرة نحـو الله لا تَـتَحمّل خُطـا مبررين يسعون إلى التثبيت دون الإثبات، ويهـتمون بالشـكل دون المحتوى، وذلك هو المكمن الذي ولج إلينا منه مَنْ ولج.

التزكية والتوثيق

إن كـل مجـتمع بشري عادي ـ فضلاً عمن يتميز بشكل ما ـ لا تسـتوقفهم الصـفة الفـردية فينبهرون إلا بالمقدار الذي يتلامسون مع تلـك الصـفة، ومـع هذا فأمّا أن يمروا بالمبهر من الأعمال أو الرجال محتـرمين مقـدرين معتبـرين، أو يشـيحوا قالـين كارهين حاسدين، والبشـر علـى العموم وفي كل الأحوال لا تهمهم النوايا الحسنة ما لم تظهـر تلـك الـنوايا متجسـدة بعمل خارجي ملموس حتى وإن كان صاحب النية أَصْدَقَ مَنْ صَدَق، وتعايش معه كل الناس وفَهَموه على نهج ما فكّر ثابتاً عبقرياً.

ولا نشــذ نحــن ومن نتعايش معهم عن ذلك إن لم ننوف، إذ لا نـذعن معتـرفين إلا بما تحيطه القوة الخارجية ماليّاً على الأكثر ـ مع الأسـف ـ وعلمـياً على الأقل، ولذلك احتاج أي عمل يمس جنبات الواقـع إلى مبهر خارجي. وهذا الذي يدعوني إلى التأكيد على طرح مـا ننشـط فـيه بالصـورة الجلية الواضحة مع تثبيت شخوص منفّذيه بملكاتهم، وما أقاموه من تأثير على الساحة مورد العمل، أو المشروع

مكـان الجهد، أو بما أثْروا بهِ الفكر، وبما أثّروا به في الأسلوب، على أن نحيطهم بتمام العناية مع إبراز حقيقة انتمائهم إلى الحوزة الشريفة.

ولكـي نُمسِـك وَحْدَنا بالتأثير، ونتبنّا تلك الشخصيات، علينا أن نحقـق ـ أولاً ـ الهدف الأهم بموضوعية ورسوخ، فنجيب عملياً عن سـؤال: مَـنْ تكـون الشخصية المختارة التي يجب أن نرعاها ونعمل علـى تربيتها في الحوزة وروافدها، وعن أي طريق نقبلها بين ظهرانينا، وما هي الأعمال التي يجب أن نتبناها مالياً وعلمياً واجتماعياً ؟

وإذ لا أريـد أن أدخـل في زوايا وخبايا وتفاصيل قد تفضي إلى الاخـتلاف ـ ومـا أكثـر مَـنْ يُصِـرّ على أنّه يفهم! ـ ولكني يمكن أن أمسّ الموضوع بطائف مما أفكر به.

إنّنـي أقـرر ـ بإصـرار ـ وجـوب أن نبني اختيار الشخوص التي تنتمـي إلى الحوزة على التجرّد التام عن كل مؤثّر خارجي، مع علمي أنّ دون ذلك (خرط القتاد) كما يقول فقهاؤنا وأصوليونا.

وإذ ثـبت أن مـا جـرينا عليه في اختيار الشخوص اعتماداً على التزكية والتوثيق ـ من شرائح معينة ـ هو عين الفشل، ثبت ضرورة أن نغيّر الأسلوب في هذه النقطة المهمة بالذات.

ويـتحدد الخطـأ في الاختيار المبني على التوثيق الاجتماعي ـ عموماً ـ باحتـياج كثيـر مـن الموثّقين إلى مَنْ يوثقهم ـ هم ـ فضلاً عن أنّهم يوثقـون غيـرهم، بالإضـافة إلـى عـدم قدرة الكثير ممن يُطْمَأنّ إلى

تديّنهم على تفهّم أنّ آثار ما يفعلونه ترتدّ على المذهب والعقيدة في حالة مجانبة التوثيق للحقيقة في عدم صلاحية من يوثّق لدخول الحوزة. إنّ كثيراً من مجتمعنا يحتاج إلى مصداقية في الرؤيا تبتعد به عن المجاملة والتساهل في عدم قول الحقيقة.

إنّ التقويم الشخصي ـ في عرف مجتمعنا ـ هو جسرٌ قد يوصل مَنْ يطلب مكاناً أو مركزاً إلى ذلك المكان الذي قد لا يستحق أن يكون فيه من خلال إلباس صفة المشروعية على استحقاقه له بتوقيع مُقَوّم لا يقوى صاحب الشأن على ردّه. ولأجل هذا أقول: إنّه لا ينفع في تأسيس مستقبل حوزوي في جديد شخصيات جرياناً على ما عليه مجتمعنا من المجاملة ومراعاة الخواطر.

الأسلوب الأمثل

ولأجـل ألاّ نُلّـفَ كرّةَ أخرى بما غَشِيَنا مِن رَهَقٍ مَنْ غشينا أجد الضرورة في اتباع أسلوب صارم لقبول مَنْ يريد الدخول في الدراسة الحـوزوية، ولئنْ فاتنا مَن فاتنا - وحتى لو ننكأ الجرح - أقول: يجب أن نلـتفت إلـى التمييز ما بين الصالح والطالح، وأن نتلبّس بالصراحة والواقعـية دون أن نخشـى أحـداً مـن الناس، فإذا لم تكن الشخصية الوافدة إلى الحوزة - فيها أو في أي من روافدها - شخصيّة تتلاءم مع حمـل الرسـالة حقـيقة وواقعـاً، يجب أن نعمل على ألاّ تكون، وإلاّ فالحـوزة لا تحتاج إلى محض مُشَخَّص عمامة أو مسمّى رافد يفتقر إلى القدرة على أن يرفدها بعمل خلاّق حتى بمقدار الحد الأدنى.

وحـين قصّـرنا فاتبعـنا فـي سـالفات مـا مضى أساليب مجاملة الآخـرين ومـراعاة خواطـرهم لننتهـي إلى ما انتهينا إليه، فلا محيص عـندنا الـيوم إلا أن نعمل على تغيير الأسلوب من خلال انتهاج خط عملـي واضـح يفضـي بنا إلى الاستطاعة دون حدود، على أن نقلب صـفحات كـل أحد حتى لا نأسى نادمين على أن يكون بيننا من هو

مثيل الذي لم ترتضيه رسالتنا على مرٍّ تاريخ العناء الذي خضناه ممن أتْعبَنَا في الفكر والمنهج والأسلوب، وخلاف ذلك فأنا أقر بعدم قدرة البعض على أن يقبل ما يتغيّر فينا نحو الأحسن فيصمت مخرباً أو يتكلم مخرباً.

ويجب في هذا الصدد أن نعمل على تطبيق نظام قوي يؤسّس أسلوباً جديداً للقبول يقوم على دراسة الشخصية التي ستلج الحوزة من كل جوانبها، مع عدم السماح لها بارتداء العمامة خلال الفترة الأولى من الدراسة لأجل التحقق من هويّة صاحبها بأدق وأصدق وسائل الاستفسار عن شخصيته ومدى صلاحيتها للقرب من (جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) في علمه وخلقه وإنسانيته، وذلك لا يتم إلا بعد أن نحيط تماماً ليس فقط بانحداره الأسري، أو التأكد من سلامة منبته، بل لابدّ من معرفة سلامة نفسيته تماماً، وتكامل جسده، وصلاحية قدرته العقلية، ومدى تأثير محيطه عليه في نشأته، وتربيته، وتَعلّمه، كما يجب أن نكون على علم من قدرة الشخصية التي ستلبس العمامة بأن تكون متزنة، عاقلة، متوازنة، لا تستسلم لقوّة المادة أو تتضاءل عند حدودها، كما لا تتأثر بالعقل الجمعي الذي يحيط بها فتنجرف معه، أو تكون فردية من أجل أن تخدمها الجماعة.

وفي كل ذلك يجب أن نتوصل ـ بكل تجرّد ـ إلى جواب سؤال فاصل: هل يصلح أن يكون الشخص المختار للبس العمامة أنْ يتعمم؟

ولابدّ في هذا السبيل أن تتشكل لجان خاصة للاختبار ينظر فيها إلـى كـل فرد يريد الانتماء إلى الدراسة الحوزوية دون الاعتماد على نماذج للقياس أو أفكار مسبقَة للمماثلة في المجتمع الذي تنتمي إليه الشـخوص العاملـة فـي هـذه اللجان مع علمي أنها قد تكون حاملة لنسبة عالية من صفات مجتمعها وملازماته النفسية والفكرية.

إننـي أخشـى مـن بقائنا في نفس الحلقة المفرغة، ندور بمجرد الحـديث الناقد لدراستنا بما أسماه البعض (عدم الانضباط) ليتحدث الآخـر عـن (عدم المسؤولية)، دون أن نرسم خطوات متزنة للعلاج، كمـا أخشى أن نبقى ما بين الشد والجذب في الطرح ونقيضه، ليبقى طالـب العلـم كمـا هـو متروكاً وحده دون اهتمام سؤال عنه، ليجد المجـدّ الذكـي الملتـزم نفسـه فـي سـواء مع من لا تتحقق فيه تلك الصـفات موهـبة أو إهمالاً، بل قد يحس بالغبن إذ يتقدم عليه منزلة الهاب الداب الذي عرف كيف يهب فيدب.

وحتـى لا يتكلف متكلف عناء الفكرة أقول: نحن نعلم أنه نبت فينا ما لم ترده رسالتنا أن يكون، وأَفْرَعَ عن متاهة الجرأة على ما فينا ومَنْ فينا من مقدّسات تتصل بنظامنا الإلهي الحق.

ولا يكفينا القول أننا واعون بأنّ الله يسددنا ولا يتركنا، فضلاً عَن أن يسـمح لمـن يحمـل مـا يحمل في نفسه أن يخلط أوراقنا الفكرية التي تـتابعت من يد علي عليه السلام إلى أبنائه، ثم بعدهم من أمين إلى أمين إلى أن

تَجَلّت بكفّ الأمناء من عصرنا، وهم علماؤنا ومن يدور حولهم من المخلصين. بل يجب أن نلتفت إلى أن مقام التسديد قد ينأى عنا ما لم نعمل لأجل الصدق بحمل المسؤوليّة والارتقاء بها وإعمالها واضحة، وقد يُردّ ما منينا به من استباحة في بعض مفاصلنا الفكرية في بعض جوانب تاريخنا إلى تخلينا عن الواجب الذي أناطته الإمامة في أعناقنا كناقلين لأحكام الله، ولو كان الأمر كذلك مقدمة ونتيجة، فهو ليس ـ كما اعتقد ـ مثل ما نمر به اليوم؛ إذ لم يعد ينفع أن نغضي أو نسكت أو نسكن أو نكنّي أو نورّي بل يجب أن نحدد بدقة ما نريد ونوضّح ما يراد مع تحمل ما أخطأنا فيه المراد، أو خَطَلْنا في اختيار المريد، أو انعدم توفيقنا في تقدير ما يراد، على ألاّ نهرب أو نتخلى عن أي أحدٍ ينتمي إلينا تحت أي ظرف من الظروف ومهما كانت النتائج، إذ نحن بما نحمل أوفى ممن تحدّث عنهم أدبنا العربي:

لاَ يَسْألون أَخَاهُم حِينَ يَندبَهُم

فِي النَائِبَاتِ عَلَى مَا قَال بُرْهَانا

وقد نعيد إن عملنا بذلك بعض ما استُلِبَ من ثقة ببعض منّا.

ويتحقق بعض ما نريده في سياق أهداف التكامل في حوزتنا من خلال ترك التعامل بكيف الصمت المطبق مع قواعدنا الموثوقة، إذ من حقّها أن تفهم بعض ما يجري وإن أرتأينا إخفاء بعض ما نريد. وكذلك بالتخلّي عمّا درجنا عليه من عزل (للعقل الخاص) بإخفاء ما نريد

إخفاءه عنه في إظهار ما لا نريده، أو اتباع أسلوب الحجب للمعلومة حتى عمّن كلفناه بعمل في واجهة قَدّرنا التخلّي عنها عند وضع معين.

إن الذي حكّمنا في خط آل محمد فأثبتنا متراصّين في أجيال الشدائد عبر القرون؛ هو تعامُلنا بأساليب الإمامة الإلهية، حيث شفّافية الروح، لا مرتكزاتْ المصالح أو مختصات نصاعة الثوب الفردي فقط تحكمنا الأنا، ثم ما بعده فليكن الطوفان في الأمة.

ورغم أننا ـ بما حملنا ـ نحن الأوعى والأقدر على أن نصل نحو ما نريد دون التفات إلى الطريق، إلاّ أنَّ الذي شكّل طبعنا فأطعنا فحجزنا عن ركوب المنزلق لبلوغ الغاية هو ثوابت المبادئ الرساليّة وميراث ما آمنا به من حق، ثم مخصصات العيب وموروثات الفروسية، ومقول الرِّجال.

إنّنا في سباق محموم على ملعب التاريخ، وعمائمنا هي أهم لاعب في أحداثه اليوم، وسوف لن نُرْحَم غداً إنْ اشْتَمَلَنا ضَعْفُ المسيرة، أو اسْتَبْعَدْنا أَحَدَ طاقاتها الشخصية الدافعة، أو استبدلنا سفاسف المواقف بالثبات المبدئي، وسوف لن يشفع لنا أن نقول نحن بشر أخطأنا المسلك.

الامتحان

لقد درجت الحوزات العلمية في الأماكن المختلفة ومنها حوزتنا الشريفة في النجف الأشرف على الإعراض عن التقويم الحرّ للأشخاص بما يُثْبتون هم من مزايا علمية، بالإضافة إلى موضوعية من يُقَوِّم ودقته وخوفه من الله، واتجهوا في التقويم إلى أسلوب خارجي يستند إلى إثبات العالميّة لطالب العلم بمقدار ما يُمْنَح من درجة حين يُمْتَحَن بكل ما يحوي الامتحان من سلبيّة الممارسة.

والامتحان هو إفْراغٌ للمعلومة المرتكزة في ذِهْنِ مَنْ تلقّاها خلال زمان ممدود ـ حين يُخْتَبَر بتَذَكّرها في زمان محدود ـ بأسلوب خاص ومكان محدّد، ويتحكّم في صحة خزنها عنده ـ وتقويم الجواب عنها ـ فَرْدٌ قد يَقْصُر في قدراته أحياناً عن الشخص الممتَحَن، حسبما نبغيه حقيقة في رجل الحوزة، وتكون النتيجة أن تتحدد شخصيّة مَن ينقل الحكم الشرعي في جانب تقويم قابليته الحقيقية على الاستذكار فقط، وذلك ليس هو المبتغى في مَنْ يوصل بين العبد وربّه.

إنّ الالتزام بآلية الدرجة في المفاضلة بين غير المؤهَّل والمؤهَّل والأكثر أهلية في حوزتنا الشريفة، هو هروب من خوف أن نحوي بيننا من ينفلت في الدرس والتحصيل إلى خطأ حشر المعلومة على المعلومة بمقياس فنّ الإجابة عنها... وذلك انعطاف مخيف في اختيار القيادة الشرعية عند من سيتقدم بعدئذ لاستلام زمامها في الفتوى تقليداً إذ قد يُفْضي إلى مَنْ هو غير مؤهل للدرس إلاّ فيما أجاب وأتقن في الامتحان من حيث استحضاره عمّا يُسأل عنه، ليكون بديلاً عن الشخصية المتكاملة فيما دَرَسَتْ على مساحة عُمْرٍ ما جدّت واجتهدت، متقربة إلى الله للوصول إلى ما بشر به أئمة الهدى طالب العلم من منزلة عند الاشتغال بطلبه، دون أن يكون الدرس مسلماً واقعياً إلا بالمقدار الذي يضيف من معلومة صحيحة لأجل الارتقاء في التدبر.

إنّ أُسلوب الامتحان على ضوء مبدأ ما لابد منه في معرفة الخالي من المملوء لا يجدي في الدراسة الحوزوية؛ وذلك لتطّلب تلك الدراسة استحضار ما درس الطالب في كل آن باستعداد للإجابة عن السؤال في أي وقت، ثم تمثيل ما خَزَنَ من علم دون أن يكون ما يجيب عن بعض ما خزن هو المقياس لما عَلم.

ومع هذا فقد نجمع بين معيار الدرجة في تمييز الدارسين وبين

التفاضل الفكري في نقاش الدرس أو ما أسمّيه بسؤال الاستفزاز، مع ما يقدّره الأساتذة بالموضوعية والحيادية الإلهية في التقويم لقياس الاستيعاب العام والاستيعاب الخاص على النطاق العملي من خلال قياس وتقدير نوعية المعرفة التي يحملها الطالب، وذلك هو الأسلوب الحرّ في التقويم الذي لا يخضع لآلية خاصة أو موقف خاص أو زمان معيّن.

تقويم الطالب

إنّ الطالـب الحقيقـي فـي حوزة النجف علم يتحرك، متهيئ في كـل آن للـنقاش والسؤال والجواب، والأخذ والرد، والإشكال، وعدم الاقتناع بكل ما يقال والاقتناع عند الحجّة القويّة، وهو حين يستحضر مجمـل مـا درس على مدى ما دُرّس، يطرح بضاعته العلمية في كل مكـان وزمـان يحتاج إلى إبراز ما يعلمه دون أن يَضُنّ به على أحد، والشخصية تلك لا يحققها الامتحان.

إنّنا يجب أن نرجع إن أردنا التكامل إلى التصنيفات التي اختفت الـيوم فـي تعيـين الطالـب المُشْتَغِل والجاد، واستعادة نظرة الاهتمام والتقديـر إلـيه، فـنقدّمه علـى غيـره من خلال ما نُكَلِّفه من تلخيص دروس، أو كـتابة بحـوث، أو إدارة حلقـات نقـاش، أو إشراف على مباحـثة بـين اثنـين أو جماعـة، أو طـرح الإشكالات والإجابة عنها، وبـذلك سـيثبت ذو الموهـبة المخلـص فـي درسـه الأشد مضاءً في تفكيـره والأقـوى فكـراً في استذكاره، وحينئذ يتوجب على مَنْ بيده

الأمـر والنهي أنْ يُشْعِرَه بالتميّز عن غيره، ويعدّه للمستقبل، بأن ينيط به مهاماً على مستوى ما يُنْجِز.

لقـد اطلعـت خلال ما دَرّسْتُ في الحوزة الشريفة على كثير من الـنماذج كانوا شعلة ذهنية حادة في الإجابة والدرس والاشتغال، وقد تضـاءلوا لعدم الاهتمام بهم، والناس ليسوا سواء في الصبر والتحمّل، ولقـد غُـبِنَ نمـوذجان كـنت أَتوسَّـم فـيهما أن يكون لهما شأن في الحوزة، ولا تلتفتوا لما أقول فإنّهما نموذجان فقط.

رجل العلم

المفتـرض أنّ رجل العلم عندنا هو المعمم الذي يتلبس بمبادئ آل محمـد خُلقاً وعلماً ومعرفة، إنّه مَنْ نَذَرَ نفسه للإحاطة بما يتصل مـن خدمـة للأمّة دون جزاء إلاّ ابتغاء رضوان الله، فيكون في الدرب كما يريده منه سبحانه.

والعمامـة زي لا يصلح حقيقة إلاّ لمن تتلبسه المواصفات التي أدبـت بهـا الإمامة أتباعها، فيتحرك ـ لذلك ـ متزييها على قَدَر، حيث ارتضـى عاتقـه أن يـتحمّل جمـيع مـا يحـيط بالأمة من تعب وعناء وشقاء. وفوق ذلك فإنّ الله يحاسبه على مقدار ما يرى هو في نفسه، وميزان ما يراه الناس فيثقون به.

ولا تكـون العمامـة حقيقـية دون ملازماتهـا الإلهـية المفروضة، وحينئذ يجب ألاّ تسعى نحو الاتصاف بعنوان وكالة عن مرجع لأجل عَمَلـيّة التفاخـر،أو الانتشـاء بمـا تـؤديه من إمامة جماعة فتزهو، أو الاسـتعلاء مـن خـلال قـربها مـن المـرجعية؛ لأنّ مـزيّة الوكالة عن المـرجعية أو القـرب منها أو إمامة الجماعة ـ لو كانت في شخصيّة ـ

ليست إضافات لها ما لم تتكامل في ميزان الله لتؤدي الواجب مع العباد.

إنّ العلم وطلبه والعمامة ليس ميراثاً واقعياً ولا حتى توارث ظاهري في الأشخاص أو الأُسَر، ولكن الذي تَضُمُّهُ أسرة علمية يكون أقدر عادة على تحمل ثقل العمامة وفهم أسلوب التبليغ، حيث يبتني على جذر حقيقي في شخصه يختلف عن غيره حينما يتحرك ويتصرف وينطق ويقول. بل تمتلك الأسر العلمية ـ عادة ـ أعرافاً وتقاليد داخلية تتهيأ من خلالها لأن يتقبّل أبناؤها الالتزام المضغوط في الشخصية لطالب العلم.

تحقيق الهدف

إنّ ما تسعى إليه الحوزة العلمية في النجف وروافدها من المؤسسات هو إيجاد طالب العلم الحقيقي الذي سيكون المؤثر ـ لو أدّى دوره ـ في الكيان الاجتماعي من خلال ما يعلم، متحملاً المهمة، حاملاً هموم من يحيط به، متنزّهاً عن الدنيا، متعففاً عما في أيدي الناس، حاملاً أنضج عقلية ـ مفروضة ـ لترتيب الذين معه بأسلوب رسالي يتلاءم مع كل مرحلة تمرّ بها أمّة محمد ﷺ، فيملأ الزمان والمكان، في مكان ما يوجد، وزمان ما يقود ومَن يقود.

وفي ما ذكرته، فنحن ـ مع كل الأسف ـ لازلنا نحبوا زاحفين في اتجاه إيجاد قواعد على نمط أولئك الرجال، وقد سبقنا في ذلك غيرنا بأشواط كبيرة، ومن ينظر إلى ضخامة ما يعمله ممن يحمل أفكاراً مِن غيرنا عن إيجاد المجتمع المسلم حسبما يراه، ومدى التأثير الذي استوعب به الساحة التي يعمل فيها، يأسى على تخلّفنا عن مضاهات أولئك رغم إنّنا نحمل أضخم فكر، ونحتوي على أخلص وأذكى رجال، ونستند إلى أحق وجود في أرسخ تاريخ وأنقى عقيدة.

لقد تأثرنا بما غُزينا به مما ابتعد عن ثوابتنا الفكرية، بل أخذ النقاش فينا يَطَال بعض أساساتنا.

إنّ التاريخ والمبادئ وسيرة آل محمد ﷺ لا تتحمل الاعتذار -عن التراجع- بقوّة ظلم الظالم، إذ لم نُعْدَم يوماً وسيلة في المسيرة فنضطر لما نحن فيه فضلاً عن انفتاح الطريق أمامنا اليوم ضمن زمان معقول لكي ننتج.

إنّنا يجب أن نفكر بصورة جِديّةٍ في عملنا الحوزوي وروافده في شقِّ إيجاد نمط جديد من العلاقة بين العمامة وشارع الأمّة، على أن نكون أذكياء في هذا بحيث لا نذوب فاقدين الشخصية ولا نستعلي حتى نُمَلَّ ونُعْزَل، كما أنّنا يجب أن نفهم تماماً بأنّ أمتنا -بصورة عامة- لا تخضع إلاّ إلى ما تريد أن تخضع إليه هي، ولا تطيع المعمم إلاّ بمقدار ما يحقق لها ما تريده من واجهة.

ويجب في هذا أن نوجِد عمامة حوزة لا تأخذها في الحق لومة لائم، تصمم على الفعل الصواب ليتحقق، وتَتَحَلّى بالشجاعة في حمل المسؤولية، راشدة في التبليغ، ثابتة على المبادئ، لا تنطوي على الذات تنتظر مَنْ يُقَبّل يدها، أو يدعوها ليقدّمها في صدارة محفل.

إنّني لا أنكر على العمامة حقّها أن تبجّل، أو تُجَلّ، بل أرضاه، بل أسعى إليه لطالب العلم؛ لأنّه أقَلّ واجب يقوم به مجتمع تجاه من يستحقّه

لـو كـان، ولكنّنـي أتكلم عن تحوّل ذلك إلى عقدة عند البعض ـ ممن لم يسـتحقّوا أو اسـتحقوا ـ حـيث تدافـع بعـض هؤلاء في تهافت غير مسبوق من أجل تلك البهارج القشرية، حتى صار التنازع على النفوذ فـي المكـان والـزمان عند المواضع والمواقع هو الأولوية في العمل، إلـى حد تشكل محميات هنا لهذا وحمى لذاك هناك لا يحق لغير ذا وذاك لو أراد أن يمدّ نفساً فيها ولو لتعليم أحكام الله.

العمامة المستقلة

ينبغـي أن نسعى إلى إنشاء مشاريع ترفد الحوزة على أن تهدف إلـى الرجل الحوزوي الأمثل، إيجاداً وتربية ورعاية، بشرط ألاّ ينعزل عـن واقـع الأمـة، مع أنّي لست ضدّ مَن يرى أنّ من واجبه الانعزال لسـبب يـراه هو، ولكنّي أرى أنّ ذلك لا يحقّق المسيرة الفكرية لأمة صـادق آل محمـد عليه السلام بكـل حذافيـرها ومتطلباتها، ولكنّنا يجب أن نحذّر من تحوّل الانفتاح بالروابط إلى استبدال ما هو للسياسة بما هو لله، فـتمسّ الحـوزة صـراعات السياسة مع كل ما نبغيه من استقلالها وإبعادها عن الولوج في المستجد عندنا من أعراض المصالح ومراكز الـنفوذ، والحـوزة هـي المطمع لانطلاق أي شخص يريد أن يمسك بالأجواء العامة وحده.

أنا لا اعترض - أقول مرّة أخرى - على أي مخلص يختار لنفسه مـا يشـاء من طريق لخدمة الرسالة وبأي مسلك يشاء، ولكن لا يحقّ لأحد أن يحوّل الحوزة الشريفة إلى ممارسة سياسية يدخلها ويدخل فـيها علـى أسـاس صـراع تـنافس ونفـوذ تُجَيِّر لخدمة جناح معيّن

والحوزة لكل من ينتمي لفكر آل محمد إخلاصاً، بغض النظر عن حمله لما لا يرتضيه هذا الجناح أو ذاك.

إنّنا لا يمكن أن نُخْضِعَ الحوزة في أيّة حال إلى ما قد يفضي في النهاية إلى التأثير على اختيار مرجع التقليد بمعزل عن ضوابط الإمامة أو وفق ضوابط موضوعة على أنّها ضوابط الإمامة، فضلاً عن إقامة شخصية علمية وفق منطق مُنَمّق على رأي من يريد. ولأجل هذا لا يمكن أن تقبل حوزتنا الشريفة أن يكون لأي أحد رأي فيها عدا المرجعية الرساليّة التي أوصلتها الثقة الإلهية وتطبيقات قواعد الإمامة الحقيقية إلى مركز الفتيا، ونحن لا يمكن أن نقبل بأي طرح لتسيير شؤون مجتمعنا عدا طرح المرجعية، ولا شأن لنا في من يسعى متدرّجاً وحده للوصول إلى ذلك المركز مخترقاً القواعد الإلهية.

وعلى هذا يجب أن نَقْوى على الانتباه لقواعد الشدّ والجذب لإيجاد موطئ قدم في ساحتنا غير ما استلمناه يداً بيد في تاريخنا الرسالي نائباً للإمام إلى نائب، وإذا أغضينا النظر عمّا يجري حولنا فسنصل إلى مقام انعدام القدرة على أن نعترض؛ لأنّنا سنكون بالأساس غير مؤهلين على أن نفعل كما هو مقتضى تصاعد الحدث، حيث نكون قد سُلبْنا ما نريد فَعُدِمْنا القابلية على أنْ نفعل وتعوّدنا التعلّل على عدم الفعل، وَزُيّن لنا بِمَشورةٍ ذلك.

والمهم أنّنا سوف لا نفعل وكفى.

ما يكون في البداية

إنّني أرى أن نحدد هدفنا في إيجاد شخصيّات لا تحمل لجاجة التصـرف، وتسـلم بالحـقّ والحجّة الشرعية، ولا نريد بيننا من يكون نرجسـياً في شخصه، ينظر في عطفيه تبجحاً بكثرة مريديه أو مُدّاحه أو عـدد مـن يحضرون التدريس عنده... فينزع إلى جمع الأشخاص وتعدادهم بأشخاصهم وأعيانهم... وتلك مثلبة كبيرة لا تؤهل مرتكبها أن يتـبوأ مركـزاً حوزوياً؛ لانكشاف قصوره في السيطرة على نوازعه مما يؤول إلى الخشية منه على مسيرتنا الحوزوية إن سمحنا للوسادة أن تنثنـي تحته. إن من ينظر إلى ذاته بأنها الشاخص وحدها لا يهمه أن تـنال المبادئ الشبهات مادام يتخيل أنه محفوظ الجانب ولو بمن يحس معهم بامتلاء خوائه من كمٍّ يتخيّل أنه يعطيهم العلم .

إنّنا لسنا بحاجة إلى مَن يدور في فلك الوهم بتخيل أنّ ما يقوله هــو الحق، فَيُطاعِن مَنْ خالفه حتى دون صنعة علم. ولأجل هذا لابد أن يُبْنـى أي مشـروع رافـد للحوزة على دراسة معمقة تتصل بصحة خطواته وقوّة وسلامة أهدافه وعدم نقله الواقع الاجتماعي كما هو.

وتتميـز حينـئذ الخطـوة الأولى فيه بدلائل الدقّة لبيان مشروعية الهـدف مـن خـلال مـا تتقلب فيه من وجهات نظر على سعة ما في الأهـداف من مدى، وتتفاوت تلك الخطوة مع لواحقها من الخطوات بـتفاوت الإمكانـات والوسـائل، وكـذلك باختلاف قدرة وقوة وذكاء ورسوخ وإخلاص القائمين على العمل الحوزوي أو الرافد له.

إنّنـي أرى وجوب أن ينعتق أي عمل رافد للحوزة من محبطات ما مـرَّ من تجارب مماثلة وما ترسخ من ذلك المماثل، وخاصة مماثل ذلك المنفـرز علـى سـاحتنا النجفـية العلمـية أو الاجتماعية تجاه أي جديد، لاسيما وأنّ مجال العمل هو هذه الساحة المليئة بالأفكار والأهداف.

لقـد تركّـزت فيـنا النظـرة إلى ما أخفقنا فيه، فتعوّدنا التردد في الإقـدام، مـع ما أُحيط بنا ـ خوف أن نخطأ ـ من قوّة الإحجام، وبين أيدينا عدّادات المُحبِطات السالفة تعمل.

إنّ الـذي يؤثـر بنا هو الشعور بالندّيّة بين من ينتمي إلى حوزتنا المـباركة، مع اختلاف قابلية الاستيعاب، وموهبة الفهم، وكذلك عدم الاعتـراف بـتقدّم مَنْ يتقدّم، لاسيما مع انعدام الإشارة الواضحة ممن يُسْمع منه الإشادة بخصوصية المميز.

إنّ بينـنا مَـن تحـيطه (الأنـا) فيأبى أن يتكاتف من أجل إنجاح تجـربة، ولـو من أجل أنّها لصالح الأمة وفي مصلحتها، لأنّ كل أحد يسـعى ـ وذلـك مـن حقه لو استطاع ـ أن يكون هو صاحب تجربة

تُرَصّعُ باسمه، وحيث لا يستطيع لانعدام الهمّة، أو قصور المَلَكة، يأخذه الخيال فيتصوّر بأنّ الناجح قد أخذ جهده الذي يجب أن يكون له، فيألم إن سكت ويعرض تصوراته عن أخطائه إن تكلم.

وحينما ظننت أننا انعتقنا من ملابسات حط بنا رحالها تتعلق بأسلوب التدريس وقواعده والنظرة إليه، حطت بنا رحال أخرى... تمثلت في اتجاه مبرمج نحو الإفراط في تناول الدروس العقلية وما يتصل بها، حتى لم يكفِ القيّمون على المسلك أن يرسخوا تدريس كتب متعددة ولم يكفهم أن يثقلوا عقل الطالب الحوزوي بما لا علاقة له بالهدف من الدراسة، حتى أحاطوا بلغة التدريس فبدت تقترب في مداخلات إلقائها وتوضيحها من ما يشبه الرموز لتغطية القصور بالفهم الحقيقي لعبائر المنهج الدراسي ولم يقف الأمر عند حلقات التدريس بعد أن امتدت غزوة الإبهام وطرح المبهم نحو الأجهزة الإعلامية إذ بدأت تُنظّر أموراً تخصصية يعسر هضمها حتى بالنسبة للعقل المتخصص مما أوقع العادي من الناس في التشويش الفكري الحقيقي، إذ لا قدرة له ـ الآن ـ على فهم أوليات المبادئ فضلاً أن يحشر في سلسلة محاضرات تتحدث عن الظهور وعلاماته والعصمة بإثباتاتها الفلسفية أو عن الأزل والأبد والفراغ قبل الخلق وبعده، والوجود والعرش والكرسي والسعة والنزول والملائكة

وصـفات الجلال والجمال... لقد وسع بعض من فكّر من الحوزويين من خلال طروحات إعلامية مسافات التجهيل وأضاف إليها مسافات مـن التشـكيك فتحيّر العقل العام... إذ لم يستطع أن يصل إلى المراد المـتكلم فضـلاً عـن أن يهضم الذي يريده، كما ثقل عليه الكثير مما يطرح فشط به ما طرح!!.

العرف الجديد

إننا يجب أن نفرض عرفاً داخلياً فينا يميز بين طَلَبِ العلم كَتَرَفٍ وارتـزاق، وبـين ما يكون من أجل التقرّب به إلى الله والإعداد لليوم الآخر، وذلك بحث لعلّي أعود إليه وفق ما رأيت وجرّبت وعايشت.

والنقطة التي تستوقفنا للإجابة عنها تتعلق بما يلح فينا من تساؤل يـدور حـول حقـيقة تحديـدنا لصـفة طالب العلم إذ هل هو هيكلية خاصـة ولو لمجرد كونه مسنداً للبُلْغة أو مقعداً لمحض إشغال حيز، أو هـو صـفات ومواقف وحركة وأعمال وعلم. ولو حلّ فينا متصف علـى خـلاف مـا تـريده الرسـالة فما هي مدى قدرتنا على مد قوتنا لتصفية ما ينبت فينا من دغل خانق؟

وعلـى ضـوء ذلـك ـ لو التزمنا جانب الصرامة في الحفاظ على قواعدنا الداخلية ـ يجب أن نكون صريحين في تحديد الصفات التي يَتَلَبّس بها المنتمي إلى حوزتنا المباركة في البداية، بل في أي زمان تضـيق العمامـة بأحـدٍ يلبسُـها فَتَنْفُـره، وفي كل مراحل الدراسة في الروافد الحوزوية إذا كان المعمّم ينتمي إليها.

ودون الدخول في تفاصيل الكيف يجب أن نَجِدً في خلق الحقيقي من العمامة لإيجاد المجتمع الذي يحترمها وفق مزاياها الرسالية، لا أن نفرض العمامة مزيّة في الشخص لنفرغ من لزوم اتباعه والاعتراف بقياديته لمجتمعه أياً كان هو، ولأجل هذا يجب أن نركز على التفريق بين الاحترام والاتباع وأن الأول لا يفضي إلى الثاني في الوقت الذي يكون فيه الاحترام من لوازم الاتباع إن أثبت المعمم واقعاً عملياً والتزاماً حقيقياً بمادىء الرسالة والأعراف العلميّة المتبعة من عدم الوثوب إلى قمة الهرم من أدنى قاعدته التي يشغلها مع أقرانه.

وفي الوقت الذي أَلحُّ فيه على إعطاء كل ذي حق علمي حقه من التنويه به واحترامه أياً كان أقول بوجوب عدم طغيان الموهبة العلمية لطالب العلم على مبدأ التصاغر لمن تعلم منه حسب ما أدبنا به المأثور عن أئمة الهدى من أن الآباء ثلاثة: أب ولدك، وأب زوجك، وأب علمك. وذلك هو المسلك كي لا ينجرف من تعلم نحو التلبس بالفوقية مع من يتعلم معه أو يتعلم من أجله، كما أنه هو المؤمّن لعدم تخطيه العرف العلمي دون وجه حق أو الادعاء بأمر ما في محضر من يفترض أنه أعلم منه.

إنّ الحوزة العلمية في النجف مع تفرعاتها الصابّة بها هي جُنْديّة على طريق آل محمد ﷺ، وجميع مَن يدرس فيها هيكل علمي

واحد، تفصلهم المرحلة الدراسية وتميّزهم القدرات والمواهب، بعيداً عن الانتماءات والغايات. وفي هذا السبيل تتشكل لدينا أساليب المعالجة لموارد انتفاخ البعض في حوزتنا العلمية من قبيل إعلان الحوزوي علميته لمجرد إحساسه أنه تعلم. أو أنه قد يكون علم فعلاً دون وصوله إلى الزمان الذي يناسب إعلانه، أو لمجرد انتمائه إلى أسرة علمية أو بنوّته لمن هو عالم واقعاً، بل حتى لمحض أنه قد وضع العمامة على رأسه.

وإذا دلفنا إلى أفنية علاج ما يصيب طالب العلم من أعراض، فلابدَّ أن نغرس فيه ركائز تربية الذات وبدايتها تركيز انصهار نفسه تواضعاً على كل حال، وبما يتعلم ولمن يعلم في الحال الخاص، ومن ثم انتهاج الإخلاص والجد في التحصيل والملاحقة في السؤال عمّا لا يفهم، أو حتى عمّا يفهم للاستزادة في الفهم، مع عدم تلقّيه ما يدرس من معلومة كَمُسَلّمة لا يجرأ أن يرد عليها إنْ عَنّ له خطأ أو مرّت بخاطره فكرة هي أوفق مما طُرِحَ، ويجب ألاّ نأخذ ذلك على عواهنه كي لا ندعو إلى جرأة ـ على أعلام حضور أو مضوا ـ من قِبَلِ مَنْ لم يَنْبت عليه حتى الزَّغَب فضلاً عن أن يَتَرَيّش ليظنّ نفسه طائراً مع العلماء فيتجرأ على مناقشتهم مستنداً إلى فراغ ما يحمل.

وإذا وصل طالب العلم تربية وتدريباً إلى حدّ ألاّ يستخفه هواه، فلا شك أنه سوف يثبت ذاته بما هو هو، لا بخلفيته وانتمائه أو بما

يقـول عنه الناس ليبرز وعاءه الذي قد لا يحوي شيئاً فيدعي ما ليس فيه، أو قد يحوي فيستعلي على سواه.

إنـنا يجب أن نثبت حوزتنا المباركة على أرض صالحة للإنبات يـتأهل المتلقـي فيها كدارس يتعلق بالله في تعطش إطاعة ويسير في منحنيات التحصيل سالكاً سبيل ربه، نظيفاً في روحه، سليماً في قلبه، واسـعاً في عقله، متكاملاً في شخصه، منزهاً عن دنايا الأعمال، ذاكراً لمـا اقتـرف، مسـتغفراً عمّـا فعـل، مَشْيُهُ التواضع، وقوله الصدق، إذ يكـون فـي الصـف الأول مما قَدّرَ الله لعباده الصالحين حيث سوّاهم منازل منازل.

إن مَـن لا يمتلك الانضباط في شخصه لا يؤهل للتتويج بعمامة لـيكون ضمن مجتمع تحكمه سلوكية خاصة في التعامل؛ لأن العمامة ثقـل لا يحملـه مفتقـر إلى معرفة ما توجبه من التزامات وقواعد هي شـعار ودثـار مَنْ سيكون الواسطة بين المكلف وربّه في نقل الحكم الشـرعي باجـتهاد واقعـي مـن الأدلـة الشرعية، أو عن فتوى مجتهد مُسَلّم الاجتهاد وبمزايا مسلّمات القيادة يسمى مرجعاً.

والـذي يحكم طالب الحوزة ـ في الحقيقة ـ ليس قواعد الحَرام واللايجـوز؛ لأنّ مَـن لا يطـيق مـنع ذاتـه عن اقتراف خطيئة يَتَعَنْوَن بعنوان (فاسق) ولا يمكن إطلاقاً أن يُسْمَح لمن يتصف بذلك العنوان

أن يتحوّل إلى دارس علم في مكان هدفه طهارة الذات ونقاء العمل وصفاء النية، ولكن الحاكم لطالب الحوزة هي قواعد الـ (ينبغي) والـ (لا يَنْبَغي) التي تندرج تحتها ما تسمّيه اللغة الفقهية بـ (لوازم المروءة)، وهي غير قواعد الالتزام بالأوامر الإلهية والانتهاء عن النواهي، إذ هي عناوين لتكامل الشخصية التي تريدها رسالة السماء، وفيما نحن فيه تتجسد بمن يتبعون حقاً صادق آل محمد متخلقين بمبادئه ليثبتوا أطهاراً ملتزمين بما قال: «**حتى يقول الناس هكذا أدبكم جعفر بن محمد**».

ولو غضضنا النظر عن أن ينتهج طالب العلم تلك التربية في الإيجاد الشخصي والثبات والتمحيص والتقويم فسيتقرر عندنا ويثبت ما بدأه مَن يريد أن نَلْتاف على المبادئ نحو مناهج جديدة، حيث الهدف الأساس أن تتحوّل العمامة من ثقل قيادة ونظام مسؤولية إلى محض زيّ يستطيع أنْ يَتَلَبّسَ به أيُّ مَن يريد، وحين ذلك يتحقق الهدف الأكبر من إفساد الأمّة.

إنّني آمل ـ ولو بنسبة معينة ـ أنْ نُعْمِلَ قدراتنا من أجْل أن نُطَوّق ما بدأ يسري فينا، وحينئذ يحيطنا بعض الاطمئنان بكون جانب من حصوننا لازال ثابتاً لا يسمح أن تلج من خلال أسواره شخصية غير مؤهلة.

إنّ على روافد الحوزة من كل المؤسسات التي افتتحت أو

ستفتتح واجب تمهيد الطريق نحو إيجاد الأسلوب الواقعي لطالب العلم دون استنساخ تجارب محددة والجمود عليها، وعند ذاك لا يكون الذكاء أو القدرة الشخصية أو حتى القابلية الشديدة على الفهم والاستيعاب معايير الشخصية الحوزوية ما لم تتناغم وتتآلف مع ملكات خاصة لتتشكل عند ذاك المعالم الحقيقية لطالب العلم الذي قد يتسنى له إشغال صدارة ميدان اليوم أو الغد، حيث لا يملي مركزه حينها ما لم يكن مالكاً لقوة الإرادة على ضبط ذاته مع صرامة في تنفيذ ما يطمأن على أنه حق لله يجري في عباده إلى الحد الذي يكون فيه دكتاتوراً متنوراً في اتخاذ القرار مع محيط قد لا يحترم وزن الكلمة أو موجبات المواثيق أو شرف العهود.

إنّ المقياس الذي نبغيه ـ في حوزوي اليوم والغد وكل الزمان ـ يتلخص في مُقَوّمَي القوّة في الشخصية المتواضعة العالمة، والسلامة في القدرة الفكرية.

ومن هذا يجب أن يولي كل رافد لحوزتنا الشريفة اهتمامه الأوفى للتركيز الفكري الحقيقي في الشخصية الحوزوية، وإذا كان لابدّ أن تقوم دراسات المستقبل على أسس موضوعية لابد أن يدخل في إطارها ضرورة سدّ الحاجة الفعلية في ساحة الأمة من خلال خلق العالم القائد المدبّر المنفذ الذي يصنع القرار.

إنّ الخطـأ الـذي اقتـرفناه ونقترفه هو أنّنا لم نجرِ مسحاً متكاملاً لمعـرفة المسـتويات الفكـرية للحوزويـين، ولأجل هذا فقد تساوى الكـل في العملية الدراسية وفي الميزان الفكري دون تمييز، وفي هذا جلس من يفهم إلى جنب من لا يفهم، وتساوى في التقدير من يعلم بمن لا يعلم، وتقدم للتدريس من استوعب ومن لم يستوعب، وأعلن اجتهاده من لم يجتهد وطفح في الأمة من لا يصلح للقيادة.

لقـد بني الخلق على التمايز فيما بينهم، وعلى اختلاف الملكات وتباين الطاقات بناءً على التمايز الجِبلّي في التقبّل والاستيعاب وسعة الـتعقّل وضـيقه، وكـذا المـيول النفسـية وما يترتب عليها من دخول أغراض وخروج أغراض.

وافتقـرنا نحـن إلـى تمييـز هـذا عن ذاك فتأخرنا عن مواكبة ما تـريده الأمـة من شخصية المعمم التي تتحقق فيها مواصفات الحامل للمبـادئ المـتفقه فـي الـدين مـن إيمان وصبر وحمل للمسؤولية... وقـدرة علـى سياسـة الأمور ووضع الندى في موضع الندى والسيف في مكان السيف، والكلمة في مكان الكلمة.

تحصيص الدارسين

إنّ ما أَسلفْتُ يفضي بنا إلى أمر هام جداً، وهو ضرورة تحصيص الدارسين وفق ما نريد منهم ونحتاج، مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يرغب أحدهم في أن يكون بعد أن نفرغ من صلاحيتهم، على أن يكونوا طلبة في حوزة آل محمد ﷺ.

وإذا كان لابدّ لنا من تقويم للملكات والشخصيات، فمن هنا بالذات يتمّ، ويتجرد العمل حينئذ بتحصيص الطلبة الدارسين وتصنيفهم لا المفاضلة بينهم أو إعلاء بعضهم على الآخر أو التعالي لإثبات ما يحمله الحامل حتى دون مثبت، حيث نحتاج في أيامنا هذه ـ بل كل الزمان ـ إلى العمامة النظيفة نقدمها قيادية في موضعها على خط آل محمد دون طلب منها لسمة بروز أو تلهف لحمل جواز مرور لما تريد وهي تتزهد في هذا وذاك!

ويندرج التصنيف الذي أعنيه في التكوّن الحوزوي وفق ما يلي:

أولاً: مَن نأمل منهم ـ خلال ضوابط العلم والشخصية ـ أن يكونوا علماء ويرتقون إلى مجتهدين ويرتقون إلى مراجع فننتقيهم.

ثانياً: مَن نتفرس فيهم بضوابطنا فنختارهم ليكونوا خطباء، أو محاورين، أو متكلمين.

ثالثاً: من يصلحون للوكالة عن المرجع والتبليغ وإمامة الجماعة.

رابعاً: مَنْ نختارهم ليكونوا علماء في التفسير، أو كاتبين في علوم القرآن أو مقرئين له.

ولا يجري الأمر الذي ذكرتُهُ بالآلية الطبيعية التي تترتب في الذهن، أو توضع في مخطط، كما لا يمكن أن تكون بتلك السهولة المتوخاة، أو من خلال ما نقدّر من توقف هذا عند هذا الحد على أن يتوقف ذاك عند ذاك الحد فقد تتداخل المهام، وقد لا نستطيع أن نُكَوّن كما نريد ـ بالدقّة المثالية ـ لما نريد، وقد يفشل البعض من هؤلاء، وقد يثبت أنّ البعض ممن اخترناه لا يصلح لما هو فيه.

إنّني إذ أَتَحَدّث فإنّي استعرض ما أفكر ولتكن البداية، ومَن استطاع أنْ يُقَدّم ما وهب الله له مما أعطاه فَلْيُدْلي بما يرى وليبدّل وليغيّر وليُشْكِل وليُخَطِّئ، فهو حرّ بما يراه، ولكن المهمّ هو وجوب ألاّ يبقى المجموع العام الحوزوي كما هو يَدْرُس ويحصّل العلم ثمّ يُدَرّس ليحصلون، إذ ليس من المعقول أن نبقى كذلك نخرّج عمائم من أجل أن نخرجها، وليس من المعقول كذلك أن يكون الهدف مما يدرس رفع الكل ليكون عالماً أو مجتهداً أو مرجعاً، أو أن نسمح لمن يرغب بإمامة الجماعة ويتطوّع لمهامّها في واحد من مائة من

رجال الحوزة مؤدياً صلاته راجعاً إلى بيته في الآليّة المعروفة عندنا من إمامة الجماعة، وكذلك ليس من المعقول أن نترك الأمر هكذا لتبقى العمامة مجرد زيّ عند البعض وزينة يلبسها متى يشاء، وينظر الناس إليه على أنّه طالب علم أو عالم.

وبالنسبة لما أُفَكِّر به يجب أن تُدْرَس الشخصيات الحوزوية التي يقع الاختيار على قبولها وفقاً للشروط الموضوعية السالفة دراسة وافية في السنة الأولى من الانتماء إلى الحوزة أو روافدها، إذ تبدأ دراسة المقدمات حيث يبدأ التقويم من قبل الأساتذة المختصين عن كل فرد فرد حول ماذا يصلح أن يكون هذا الطالب الدارس، وعلى هذا يجب أن تكون تلك السنة فيما أسمّيها بـ (سَنَة العزل الدراسي التام) دون أي تعطيل في أي يوم، على أن يخضع الطالب لجملة ممارسات يتمّ الاتفاق بشأنها لقياس صلاحيته الفكرية والجسدية، وتكون نهاية السنة موضع الفصل ليس في النجاح وعدمه، بل فيمن يسمح له بمواصلة الدراسة وعدمها، وفيمن يُصنّف لسلوك الطريق الأول أو الثالث أو الرابع، حيث لا يلج الطريق الثاني إلاّ طالب علم منتقًى مختاراً بمواصفات خاصة وبِعُمْرٍ صغير؛ لابتناء تلك الشخصية في أساسها على الاستيعاب الكامل للثقافة بموهبة عالية، وقدرة على الحفظ والاستذكار، وذلك لا يتكامل الاّ في سنّ مبكرة.

إنّ الذي أعنيه بما صَنَّفْتُهُ آنفاً أنّه ينبغي السعي حثيثاً نحو تكامل الحلقة الحوزوية علماً وتكاملها نشاطاً، وعليه ينبغي إن نفهم:

أولاً: من نختار ليكونوا علماء؟

وأقصد بالعالِم ذلك الحوزوي الذي يمتلك ثقلاً عقلياً، وقابلية مميزة على التفكير، وقوّة خاصة على إيصال المعلومة. وحينئذ لأبُدّ أن يتقن صناعة التدريس ويتدرّج فيها من اتقان تدريس مرحلة إلى إتقان أخرى فوقها؛ ليكون أستاذاً معترفاً به لما نسمّيه بـ (السطوح العالية) التي يُؤَهّل مَن أكْمَلَها وأحاط بها جيداً إلى أن يحضر عند أستاذ له قابليّة معترف بها لتدريس ما نسمّيه بـ (البحث الخارج).

إنّ من يصل إلى تدريس السطوح العالية هو مَن يُهَيمن عادة ـ بنسبة معينة ـ على (ملكة الاستنباط) رغم أنّ ذلك ليس مبدأً سيالاً، وحينئذ لا يقتصر تدرسيه ـ كما في تدريس السطوح ـ على شرح عبارة الكتاب المدَرَّس أو الإحاطة بها وفق ما يفهمها هو على سبيل ما يملك من مقوّمات للفهم، إذ لابد أن يُتْقِن زوايا ما يُدرِّس وخباياه، وفي ذلك لأبُدَّ أن تتخرج على يديه مجاميع من الطلبة يتخصص منهم عشرة ـ على أدنى تقدير ـ ممّن يستوعبون فيمتلكون تمام الخبرة التدريسية.

إنّ على تلك الشخصية أن تواصل تدريس طلبتها دون اعتذار

بمـرض أو عجز أو شغل أو سَفَر، وإلا يجب أنْ تَتَخَلّى عن مجموع مَـنْ تُـدَرّس إلى مُدَرّسٍ بديل، على أن تُفْهِم ذلك البديل مواصفات الدرس وكيفيته حتى لا يختلط طعم المنبع على الطلبة.

إنّـنا يجب أنّ نفهم أن مواصفات الشخص العالم قد تبقى هكذا بما ذكرنا دون أن تتقدّم من الناحية العلمية، ولكنّنا يجب أن نفهم أنّهُ مُهـيّأ وفـق ضـوابط خاصة لأن يكون مجتهداً، ولكن لأبُدّ من إثبات شـرعي علـى نهـج ما أقرّه آل محمد ﷺ، وإلاّ كان مُفْتَرياً أو متلبّساً بالجهـل المـركب، وإذا كـان الأمر كذلك بالنسبة للعالم فإنّه يختلف بالنسبة للمرجع، حيث لا يستطيع أي مجتهد أن يرتقي إلى المرجعية ما لم يحوز الأعلميّة وفق ضوابطها المعروفة بالإضافة إلى مواصفات القيادة، وذلك ما ذكرتُهُ في كتاب (نظرة عامّة في الاجتهاد).

ولا يتنافى اجتهاد المجتهد أو عالميّة العالم مع كونه كاتب بحث فـي وسـيلة إعلامـية، أو كـونه يرتقـي منبـراً يحاضر من عليائه عن موضـوع يهـم ناسـه ومجتمعه. وإذ أشير إلى هذا فلأن البعض ممن يبغي الوصول أو وصل، يتنفس العيب واللاينبغي برئة معيبة، فيلتبس علـيه الـنفس الأدنى والنفس الأعلى، فيرى الكتابة والمحاضرة بعض عـناوين يتلـبس بهـا مـن يهـبط عن صفة العالمية ودست الأستاذية ومنصب الإفتاء في قابلات الأيام!

ثانياً: مَنْ نختار ليكونوا خطباء؟

وتلك مشكلتنا وحجر الزاوية عندنا من حيث وجوب الاهتمام الآن بصورة خاصة. ولا أقصد في ما أتكلم به خطيب المنبر الحسيني، فتلك مشكلة أخرى قد تُحَلُّ بمدرسة أو معهد للخطابة حقيقي وموضوعي وثابت يكون خاضعاً مباشرة ومُداراً ممّن بيده القرار إن استوعبنا الإرادة في الإنشاء واستوعبتنا في التنفيذ.

إنّني أعني بالخطيب ذلك الذي يحتوي سامعيه بما يريد أن يوصله إليهم من رسالة آل محمد ﷺ، وهو بهذا المعنى ذلك الرجل المثقّف الطلق اللسان المرتَجِل، الذي لا يتردد ولا يخاف، الذي يُحْسِن الكلام في كل موضوع دون أن يُحَضِّر له، أو يقرأ في ورقة وهو مرتبك. أنا أقصد به ذلك الذي يَدْخُل في الفكرة ويتوسطها ويخرج منها بحصيلة تتناسب مع مَن يتحدث إليهم في الزمان والمكان والمناسبة.

إنّني أقصد ذلك الذي يتقن فنّ النشيد الجماهيري للشدّ، ويستوعب أنّ لكل مقام مقال، ويستطيع أن يتصرّف بما يتكلّم للتناغم مع مشاعر من يستمع إليه ليمتلك أحاسيسه على مدى ما يسمع، وفي مكان ما يتخاطب به بلا فرق بين أن يكون على شاشة تلفاز أو في مجلس خاص أو في جمهور عام.

إنّني أعرف ـ وكذا الكُلّ يعرف ـ أنّنا نفتقر إلى مثل تلك الشخصية، بل إنّني أقول دون لبس أو إبهام: إنّ لدينا طريقة خاصة في حَصْر من نَتَوسّم فيه أنّه سيكون كذلك بإعمال مَصَدّات أتقنّا استعمالها، حيث نقصده لنحصي عليه دون مبرر أعداد الكلمات التي أَلْحَنَ فيها، أو نهمس في أذنه بأنّك خرجت عمّا ينبغي، أو لم تراعِ المشاعر الفلانية، أو استرسلت بما لا موجب له، أو... أو... أو... وذلك جميل وواقعي في تقويم من يرتقي للحديث، بل أنا معه جملة وتفصيلاً ولكن ليس بالصورة التي يتم بها الإحباط أو الاضطرار لأن يحسب المتكلم ألف حساب وحساب قبل أن يتكلم أو ينطق، ليكمّ في الآخر عن القدرة في الحديث ويسكت مع الساكتين.

إنّني أرى وجوب أن نسعى اعتماداً على ما في أيدينا من تجربة مُرّةٍ وثَرّةٍ لإيجاد الخطيب والمُحاوِر والمَتَكَلم والمناقش وفق خطوات تعتمد السِنّ المبكّرة ممن يمتلكون القابليات الحقيقية، فنُدَرِّسَهُم المقدمات والسطوح ثمّ نُفَرّغهم للاطلاع على ما يفرض أن يصنع الشخصية التي تعرف من كل شيء شيئاً بما تستطيعه ذاكرة كل منهم على ما خلقها الله من تفاوت في خزن المعلومة، وبذلك نبدأ ببناء الشخصية المثقّفة، المركّزة، المطلعة، المستوعبة للمعرفة، مع السعي لتدريب مثل تلك الشخصية على الكيف الحقيقي الذي نوصل من خلاله المعلومة.

إنّنا يجب أن نُكَوّن شخصيات تتميز ببراعة الحديث والتحديث، والجرأة في النقاش، والقدرة الطبيعية على فنّ إيصال الكلمة، والإجابة عن أي شيء في حال معرفته، ولباقة التخلّص وبراعته إنْ لم يُرِد الإجابة أو حال عدم معرفة المعلومة عمّا يُسأل.

ثالثاً: من نختارهم ليكونوا وكلاء؟

وهؤلاء هم العصب الذين نحتاجهم في التبليغ على أن يبثّوا في كلّ مكان دون آلية أوراق الوكالة وتوقيع المرجع والديباجة المتوارثة. لا، بل يجب أن يَتَدرّب كل طالب حوزة على أن يخرج من النجف إلى أيّة منطقة تختارها له المرجعية دون تلكّؤ أو اعتذار؛ لكي ينوّر بالأحكام والمبادئ ويبعد الشكوك التي بدأت تجتاحنا من هنا وهناك؛ مع أنّنا لا يمكن الاستغناء عن الوكلاء الدائميين الذين ينتمون إلى تلك الساحات إذ هم أبناء مجتمعاتها، ويعرفون مداخل ما فيها ومخارجه.

ويجب في ذلك أن ننتبه وفق مغزى تنوير الأمة إلى عدم استغلال مهام التبليغ من أجل تشكيل مركز اجتماعي خاص بالمبلّغ بمعزل عمّا أرسل من أجله، أو تجيير تلك المهام لبلورة مصالح ذاتية دون التفات إلى ما ينبغي له من وضع كل شيء في موضعه بعيداً عن المجاملات التي قد ينساق من خلالها إلى مهادنة الباطل.

وإذا استرسلتُ فيما إفكر فيه أقول: ينبغي أن نسعى - إذا تَبَنّينا هذا المسلك في عموم طلاب الحوزة - إلى أن يشترك الكل فيه دون استثناء، بل يجب أن يكون هذا أحد شروط من يصلح أن يكون معمّماً دارساً في حوزة النجف، بحيث يجب أن تخلو النجف من العمامة أيام التعطيل الدراسي الطويل كي تتنقل هنا وهناك بعملها بين الأمة، ويجب أن يتدخل شخص المرجع ذاته لحث المرسَلينَ على التبليغ بما يجب عليهم أن يباشروه من واجب.

إنّني أعرف أنّ ذلك قد يكون أقرب إلى الخيال بالنسبة لما نحن فيه من مسيرة، ولكنّه هو المتعيّن اليوم لمعالجة البلاء النازل بالأمة ولإخراجها من أمّيتها الفكريّة.

إنّنا نعيش في ساحة تتمدد في الفراغ وتحتاج إلى حوزويين متنوّرين يحسنون القيادة في كل ظرف زمني بمعالجة متفتحة، وبمعزل عن أية تيارات تتصارع، وبعيداً عن أن يتحول المبلّغ إلى محض جابٍ للمال، أو ساعٍ إليه، أو متهالك على حطام الدنيا من مكانة اجتماعية أو سمعة شخصية.

نحن لا نستطيع أن نصنع طالباً حوزوياً مبلّغاً بمواصفات الإمامة ما لم يسعه هو أن يكون كذلك، فيبدأ بإزالة ما علق به من دَرَنِ الحياة، ثم يزرع نفسه بين الناس مثمراً، يانعاً، مُظَلِّلاً لكل أحد، لابساً احترام نفسه بنفسه، كاسباً طاعة مَن حوله من الناس، ولا

يحدث ذلك على الأكثر ما لم نَكُفَّهُ عمّا في أيدي من حوله فنشبعه مالياً، ونكفيه اقتصادياً، بشرط ألاّ يكون هو شخصه جائعاً للمال أو لاحتـرام الآخرين فيقدم ما يحمل من شخصيّته على ما يفترض أن يسعى إليه في مجتمعه.

إنّـنا فـي الحـوزة وروافـدها يجب أن نُدَرّب كل عمامة على ما تـؤدي بـه العبادة التبليغيّة، على ألاّ يُكوّن واحد منهم بِطانةً تحيط به من كل جانب ومكان.

رابعاً: من نختارهم لدراسة علوم قرآن؟

نـزل القـرآن علـى رسول الله فأنار أهل بيته البشرية به ورسموه طـريقاً وأقامـوه منهاجاً. وإذ غضّوا في حياتنا الدنيا عمّا رتب الله لهم مـن مقـام فـإنهم بـذلك تنازلوا عن الواجب الذي فرضه الله لهم في أعـناق الأمـة، حـيث أمر الله الأمة فقال: ﴿قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَـوَدّةَ فِـيْ الْقُرْبَـى﴾، ومـع هـذا أنزلتهم الأمة من القيادة إلى الرعيّة، فرضـوا أن يكونـوا بمكـانهم بعد أن دار الأمر بين أن يطالبوا بحقهم فيـتحقق الـوعد بانقلاب من استعد للانقلاب على الأعقاب بعد وفاة رسول الله، وبين أن يطالبوا بفرضهم.

وتعـبد المؤمنون بالقرآن على المنهج الذي رسمه آل محمد بما تَلَقّـوه مـن الله ـ وكانـوا ثلةً ـ خَبَرَ الله ثباتهم فأقام لهم العزة قاهرين

وسـدّدهم فَتَلَوا كتابه وجَسَّدوه صفاتاً كما أمروا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء.

ولـم يفصلـوه عـن عِدْله بعد أن خلّف نبي الرحمة ثِقْلَيه ورحل مخبراً كل الأمة بواجبها المؤكد إذ قال: «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتـي أهـل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً**». ولم يَضِـلَّ مـن أمسـك الطـريق ولا ضلَّ فيه، إذْ سلك خلف العترة فنهج الكـتاب، والتـزم بالكـتاب فَتَمسَّـك بالعترة. ولم يوازن تلك المعادلة الإلهية ويجتاز امتحان الدنيا بصفاء المنهج وسلامة المسلك غير أولياء آل محمد، وعلى ذلك رسخت حجتهم واشتد بياض محجتهم، وكُلّما أحاطـت بهـم الصَـعِبَة كان عملهم بما نصَّ عليه كتاب الله منبثقاً من الحجـة الإلهـية على لسان الإمامة في البيوت التي تلا فيها جبرئيل ما أمره الله سبحانه وتعالى أن ينزل به إلى الأرض.

وفهم السائرون على منهج آل محمد القرآن بما فَهَّمَه نبي الرحمة ﷺ وآلـه عليهم السلام، ولا جـدال باخـتلاف المـنهج بـين الأسـلوب البشـري لفهم الأسلوب الرباني وبين الأسلوب الرباني لفهم الأسلوب الرباني.

إن الدلـيل إلـى الذي نكتبه أو نقوله في فهم كتاب الله هو مقالة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وقد أثر فينا استنطاق الحـق مـن أهـل الحق كما نزل وممارساتهم هم صلوات الله عليهم،

ومحصل تطبيقاتهم فيما بين زمان الانفتاح لكي يتكلموا وبين زمان الانغلاق لكي يسكتوا عدا ما اتصل بمنهج التعبد حيث سلكوا كل سبيل واستفرغوا كل جهد لتثبيت السبيل الأقوم كما أنزله الله سبحانه وتعالى، وصفحوا في زمانٍ قليلاً أو كثيراً عما يتصل بالتأويل أو التفسير مما ليس له مدخلية في إفراغ الذمة بين العبد وربه، وحينئذٍ خضع عطاؤهم للظرف الزمني في جوانبه الخاصة والعامة فكانوا بين الإبهام تارة والسكوت أخرى والتمويه ثالثة، وبذلك تأسس لنا منهج تعاملنا به على طول خطنا مع كتاب الله فتضيقت عندنا مناهج التفسير والدراسة وسارت بنا نحو أن نناى ـ بالغ ما بلغنا من العلم ـ عن احتمال المساءلة من الظالم.

لم يكن مني ـ ما عرضت السبيل ـ لأجل أن أسد خللاً في تاريخ الفكر إذ لم أكن في صدد هذا حيث لا أروم أن أقولب ما يبدو من نقص في دراستنا القرآنية بقالب اعتذار.

إنني أهدف إلى توضيح منهج كما أُدركه، على سبيل فهم مستوى حد الكثرة في إنتاجنا الفقهي والأصولي ومستوى حد القلة في إنتاجنا التفسيري أو ما يكون من دراسة لكتاب الله، حيث استمر التضييق وبقيت الوتيرة واحدة فينا محصورة بين خطي الإقدام والإحجام حيث نسكن حينما نحجم عن الإنتاج ـ وقد يطول زمانه ـ

لنلملم شتاتنا ونُضَمّد جراحنا ثم نعطي الفكر في الإقدام إنتاجاً وممارسةً وتأليفاً وتدريساً فينفرز على الدرب أفواج علماء شهداء لنعيد الكرّة نحو الإحجام.

إنني أستطيع الآن ـ إن كُنْتُ مقنعاً بما قلت ـ أن أخطّ مسلكاً يقترب من حل المشكل ما بين وضوحنا وانفتاحنا العقلي وجرأتنا في قول الحق وبين ترددنا في الكتابة في التفسير أو ما يبدو من إعراضنا عمّا يتعلق بالدراسات القرآنية؛ إذ لا يمكن أن نلج في هذا الأمر إلى فكرة عدم الاهتمام وإنما نحن نتأثر ـ كأي فكر معارض حيث كنّا دائماً ـ بالعوامل الخارجية الضّاغطة التي تحيط بنا، وقد يُشَكّل عندنا في زمان معيّن عرفاً فكرياً قد يمتد إلى أزمنة لاحقة لا تماثل زمن تكوّن العُرْف.

وبهذا يمكنني أن أضع يدي على تباعد الزمان في إنتاج تفاسيرنا المشهورة المتمثلة في عيّنة (التبيان) للشيخ الطوسي و(مجمع البيان) للشيخ الطبرسي و(مواهب الرحمن) للسيد السبزواري، ورغم كل الذي قلته فقد لا أكون على قناعة تامة بتأثير عوامل ما قلت على ما رُتّب عندنا في فكر ينبثق من مدرسة النجف وحوزتها المباركة، إذ إنّي أعترف بالأسى الذي يغمرني إلى حد كبير جراء عدم مواصلة إمامنا الخوئي ﵀ ما ابتدأ به من تفسيره المُعَنْوَن (البيان في تفسير

القرآن) حيث انتهج خطاً بمقدمة رائعة وبداية في تفسير سورة الفاتحة لو استمر به ﷺ كما ابتدأ به وأكمل لكان اليوم عنواناً بارزاً في مدرسة النجف، وعلى نفس الوتيرة فإنني آلم جداً إذ لم يمهل الطغاة شهيدنا الصدر ﷺ كي يكمل ما كنا نحضره عليه ـ في مسجد الشيخ الطوسي ـ مما كان يبدعه في منهجه التفسيري الذي أسماه التفسير الموضوعي ولو تمّ لكان نقطة تحول أخرى وعلامة مضيئة جديدة في تاريخ حوزتنا الشريفة.

إن الذي يهمني اليوم هو ما يلي:

أولاً: يجب ألاّ نلتفت إلى الوراء وأن ننعتق من الشعور بالمظلومية، كما يجب أن نشفى من تأثير المحبطات لنبتدئ منهجاً شاملاً في إقامة خطوات جديّة تركز على دراسة القرآن وتقليب النظر فيه والاهتمام بالتوازن الذي يؤسس لعلومه.

ويجب في هذا أن نوظف عمقنا الفكري في المنهج ونبتكر الأساليب مدققين منتجين مع اعتمادنا على الجديّة في تثبيت جيل حوزوي جديد ينفتح على كتاب الله.

ثانياً: يجب أن نعمل بقوة في حوزة النجف على سد مواضع الخلل والثغرات، وأن نضع الأيدي الأمينة في أماكن التأثير كي يكون المنهج أميناً من أجل الإنشاء والتأسيس.

ثالثاً: ومن أجل كل هذا يجب أن نعمل على تشكيل لجان مختصة من فضلاء طلبة الحوزة لوضع منهج عام للدراسات القرآنية والإشراف على طرائق مبتكرة لدراسة التفسير والاهتمام بمسابقات الإنتاج ومباريات الفكر.

رابعاً: أن أية خطوة لا يمكن أن تتم ما لم يشعر ذو الشأن أن عليه واجباً يتعلق في تثقيف مَنْ حوله ودفعهم إلى الأمام كما يجب أن نوجد خطاً في دراسة التفسير يتوازى مع خط دراسة الفقه ودراسة الأصول.

وأخيراً يجب أن أقول:

إنني حينما تحدثت في هذه الفكرة عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف، إنما انطلقت من عقيدتي وواجبي من أجل أن نندفع إلى الأمام دون أن نتأثر بما يقع علينا من مؤثر. إنني تكلمت وأنا أعلم أن القليل هو من يقرأ والأقل من ذلك هو من يقرأ ويسمع والكثير الكثير ممن يُشْكِل. ومع كل علمي هذا فإني صاحب دار تأخذني دهاليزها فأدخل لأقوّم الذي انحنى منها ما استطعت وأقيم الذي اندثر فيها.

إنني في كل ما تكلمت إنما أهدف إلى رضا الله ورضوانه وهذا واجبي في حَمْلي لعقيدتي كما أفهمه من هذا الحمل ولمن يحيط بي

وهـم أهلي أن يسمعوا.. أو يشكلوا ـ ولهم الحق في ذلك ـ فذلك لا يـرتب مشـكلاً عـندي مـا دام الكـل مخلصـون عندي، يصب الذي يقولـوه فـي تنقـية مـا ينحدر من منبعنا الذي يصل بالأطايب من آل رسول الله.

والحمد لله رب العالمين

المحتويات